الرؤية النقدية في فكر البشير الابراهيمي: الآليات والمرجعيات
-عيون البصائر أنموذجا-

The Critical Vision in the Thought of Al-Bashir Al-Ibrahimi: Mechanisms and References oyoun al bassaer as a model

أحمد دحماني*

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

كانت الانطلاقة الفعليّة لتجربة المفكر والناقد الشيخ البشير الابراهيمي هي التّكوين التّراثيّ الأوّل القائم على ما يسمّى بالموسوعيّة الثّقافيّة الممتزجة مع الذّوق، فقد عبّ من معين التّراث العربيّ كلّه، وقرأ كلّ ما وقع تحت يديه من إرث الأجداد القدي، ثمّ إنّ هذا السّير الموازي للتّراث في رؤيته لم يقف عند حدّ التّعامل الظّاهر الّذي يتّخذ من التّلقّي لمجرّد نهاية له، بل يحاول أن يكتشف المتون الخفيّة الّتي يحتويها النّصّ، وماذا يحمل النّصُّ من ماهيّة صاحبه ودواخله. إنّه باختصار يمارس عليها سلطته المتولّدة من رحم التّراث. و الاقتباس بنجاح لأصحاب الذوق و الموهبة

الكلمات المفاتيح: الابراهيمي، المرجعيات النقدية، النقد الجزائري، جمعية العلماء المسلمين

Abstract:

The actual launch of the experience of the thinker and critic, Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi, was the first heritage formation based on what is called cultural encyclopedia mixed with taste.

Then, this parallel walk of the heritage in his vision did not stop at the limit of the apparent interaction, which is taken from the reception merely as an end to it, but rather tries to discover the hidden texts that the text contains, and what the text carries from the nature of its author and its insides. In short, he exercises his authority over her born from the womb of the heritage. And the quotation is successful for those of taste and talent.

Key words: Al-Ibrahimi, critical references, Algerian criticism, the Association of Muslim Scholars

*** *** **

* جامعة تلمسان

تقديم:

كانت الانطلاقة الفعليّة لتجربة المفكر والناقد الشيخ البشير الابراهيمي هي التّكوين التّراثيّ الأوّل القائم على ما يسمّى بالموسوعيّة الثّقافيّة الممتزجة مع الذّوق، فقد عبّ من معين التّراث العربيّ كلّه، وقرأ كلّ ما وقع تحت يديه من إرث الأجداد القديم.

ثمّ إنّ هذا السّير الموازي للتّراث في رؤيته لم يقف عند حدّ التّعامل الظّاهر الّذي يتّخذ من التّلقّي لمجرّد نهاية له، بل يحاول أن يكتشف المتون الخفيّة الّتي يحتويها النّصّ، وماذا يحمل النّصُّ من ماهيّة صاحبه ودواخله. إنّه باختصار يمارس عليها سلطته المتولّدة من رحم التّراث.و الاقتباس بنجاح لأصحاب الذوق و الموهبة كما ترى مادام دوستال "فذهب المناجم يمكن أن يخدم كل الامم ،لكن الذهب المسبوك عملة لا يصلح إلا لأمة واحدة"

-النشأة والتعلّم.

ولد الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي في الرّابع عشر من يونيو سنة 1889، في قبيلة ريغة الشّهيرة باولاد إبراهيم بقرية رأس الوادي بولاية سطيف. نشأ في إحدى البيوت التي حفظت رسم العلم وتوارثته عبر الأجيال، وخرجت في القرون الخمس الأخيرة علماء في العلوم العربية، عملوا على نشرها في ربوع الجزائر المختلفة ، ومنهم من آثر الهجرة إلى القاهرة في سبيل الاستزادة من العلم.

بدأ محمد البشير الإبراهيمي تعليمه في بيت والده، فحفظ القرآن الكريم في الثّالثة من عمره، على يد بعض من أقاربه من حفظة القرآن الكريم، تحت إشراف عمّه الأصغر الشّيخ محمد المكّي الإبراهيمي- رحمه الله –وكان حامل لواء الفنون العربية من نحو وصرف واشتقاق، ولما بلغ سبع لازم عمّه ، فتولّى تربيته وتعليمه ، فحفظ فنون العلم المهمّة ، ولمّا بلغ السّنّ التّاسعة أتمّ حفظ القرآن مع فهم مفرداته و غريبه، وحفظ معه ألفية ابن مالك ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري وألفيتي الحافظ العراقي في السّير والأثر،كما حفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القز ويني، ورقم الحلل في نظم الدّول لابن الخطيب، والكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التّلمساني ، ومعظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن الشّهيد..ثمّ وجّهه عمّه نحو دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم فحفظ بعضاً من شعر المتنبّي وشعر الطّائيين وديوان الحماسة، وحفظ كثيرا من رسائل سهل بن هارون وبديع الزّمان، كما حفظ كتاب كفاية المتحفّظ للأجدابي الطّرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السّكيت. ولمّا بلغ الرابعة عشر من العمر مرض عمه مرض الموت، فخلفه وشرع في تدريس العلوم التي درسها للطّلبة الذين كانوا زملاءه ولغيرهم من البلدان الأخرى، وتولّى أبوه إطعامهم وإيواءهم، كالعادة في حياة عمّه .

-الرحلة إلى المشرق .

حينما جاوز الإبراهيمي العشرين من عمره تاقت نفسه إلى الهجرة إلى الشّرق، فاختار المدينة المنوّرة؛ لأنّ والده هاجر إليها فراراً من ظلم فرنسا، فالتحق به متخفّياً أوائل سنة 1912، وفي طريقه مرّ على القاهرة وأقام بها ثلاثة أشهر ،وحضر بعض دروس العلم في الأزهر ، وتعرّف على أشهر علمائه ، من أمثال :الشّيخ سليم البشري، والشّيخ محمد بخيت، والشّيخ يوسف الدّجوي، والشّيخ عبد الغني محمود، والشّيخ السّمالوطي ، والشّيخ سعيد الموجي، وختم الإبراهيمي رحلته لمصر بزيّارة الشّاعرين الكبيرين : أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وأسمعهما شيئاً ممّا يحفظ لهما فسعدا بذلك. ثمّ دفعه نهمه العلمي إلى التّوجّه الى المدينة المنوّرة ،

وكان وصوله إليها سنة 1911، وهناك اجتمع بأبيه، وطاف بحلق العلم في الحرم النّبوي مختبراً، فلم يرق له شيء منها، عدا العلم الصّحيح الذي وجده عند الشّيخين: الشّيخ العزيز الوزير التّونسي ، والشّيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، فأعجب بهما ولازمهما، فأخذ عن الأوّل الموطّأ دراية، ولازم بعض دروسه، ولازم الثّاني في درسه لصحيح مسلم، واستحكم منهما التّجربة، فتبحّر في الدّراسات الإسلامية عامّة والأصولية خاصّة ، واستلم زمام التّدريس:« فكان يتلقّى ويلقي محاضرات ودروساً يحضرها النّاس. وكان أثناء ذلك لايفتأ يناظر بعض العلماء الحجازيين أو ممن يقطنون الحجاز مجاورة، ويناقشهم في آرائهم، وكانت السّيرة النّبوية مادّة من المواد التي كان يلقيها هناك .»

كما أخذ علم التّفسير عن الشّيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي، وأخذ الجرح والتّعديل وأسماء الرّجال عن الشّيخ البر زنجي الشّهر زوري، وأخذ أنساب العرب وأدبهم الجاهلي، والسيرة النّبوية عن الشّيخ محمد عبد الله زيدان الشّنقيطي، ثمّ عكف على تعلّم المنطق على يد الشّيخ عبد الباقي الأفغاني بمنزله، وقرأ على الأديب محمد العمري الجزائري أمّهات الأدب المشهورة كالكامل للمبرّد ،والبيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الإصبهاني. وكان بين هذا وذاك يتردّد على المكتبات الجامعة، مثل مكتبة شيخ الإسلام عارف، ومكتبة السّلطان محمود ، ومكتبة الشّيخ الوزير، ومكتبة بشير آغا، وغيرها من المراكز الثّقافية المتعدّدة حتّى نمت شخصيته العلمية والثّقافية، وتقوّى تكوينه الفكري.

وظلّ الإبراهيمي في الحجاز يغترف من ينابيع المعرفة إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى، فدفعته ظروفها سنة 1917 إلى مغادرة المدينة باتّجاه دمشق، مرفوقاً بوالده، وكانت هذه بداية رحلة علمية أخرى، مكّنته من ملاقاة رجال العلم بها، من أمثال الشيخ بهجة البيطار، والأستاذ عبد الحكيم الطرابلسي والأستاذ جودت المارديني، والأستاذين قاسم ورضا ، والأستاذ عبد القادر بن المبارك، والشيخ محمد رشيد رضا. ولم يلبث الإبراهيمي إلاّ شهراً حتى انهالت عليه الرّغبات في التّعليم بالمدارس الأهلية، فاستجاب لبعضها،كما أصبح يتوسّط حلقة الدّرس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي يقدّم دروساً على طريقة الأمالي، وذلك بإملاء حديث شريف مع الإسناد، ثمّ يملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع النّاس شيئاً ما ألفوا سماعه سابقاً إلاّ في دروس الشّيخ بدر الدّيني الحسيني، ثمّ دعته أوّل حكومة بعد خروج الأتراك إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السّلطانية الثّانوية الوحيدة إذ ذاك ، فتخرّج عنه جماعة من الطّلبة، صاروا فيما بعد أعمدة الأدب العربي في سوريا ومنهم: الدّكتور جميل صليبا، والدّكتور أديب الرّمّاني ، والدّكتور المحايري، والدّكتور عدنان الأتاسي. ونظراً للانطباع الحسن الذي ترسّخ عنه في المدينة المنوّرة ألحّ عليه الأمير فيصل بن الحسين بالعودة إلى المدينة المنوّرة ليتولّى إدارة المعارف بها ، لكنّه اعتذر وعاد إلى الجزائر مع أوّل فرصة أتيحت له .

-العودة إلى الجزائر :

شاءت الأقدار أن يعود البشير الإبراهيمي إلى الجزائر في نهاية 1920، ويلتقي برفيقه في الجهاد ؛ الشّيخ عبد الحميد بن باديس باني النهضة العلمية والأدبية والاجتماعية والسّيّاسية بالجزائر، وسليل بيت عريق في السّؤدد والعلم، الذي التقى في المدينة المنوّرة، وتناقشا طويلاً حول أوضاع الجزائر ووسائل إنقاذها سنة 1913، وكانت هذه المناقشات البداية الأولى التي وضعت الأسس

الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلاّ في سنة 1931.

وشهدت عودتهما إلى الجزائر بداية الخطّة المرسومة، التي كانت تقضي بإحياء الدّين والعربية، وقمع الابتداع والضّلال، ومحاربة الفكر الاستعماري .

لقد اطلع البشير الإبراهيمي على جهود بن باديس في مجال العلم ومحاربة البدع والضّلال، فأكبر فيه ذلك، وأصبح العضد الأيمن له، وراح يؤازره، فبدأ بعقد النّدوات العلمية للطّلبة، والدّروس الدّينية للجماعات القليلة، ثمّ تدرّج لإلقاء المحاضرات على الجماهير الحاشدة، ثمّ أسّس مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشّبان نشأة خاصّة وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيّادة الجماهير، وحينما تكامل العدد وتلاحق المدد تمّ الإعلان عن تأسيس الجمعية سنة 1931، وانتخب المجلس الإداري من رجال أكفاء، وانتخب بن باديس رئيساً، والبشير الإبراهيمي وكيلاً نائباً عنه، وهو الذي أعدّ لائحتها الدّاخلية التي تشرح أعمالها، فقوبلت بالتّأييد من الجميع.

بدأت الجمعية نشاطها بمحاربة الاستعمار الثّاني لأنّه أهون، ويتمثّل في:

1 -تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضّلال في الدّين بواسطة الخطب، والمحاضرات ودروس الوعظ في المساجد والأندية.2- الشّروع العاجل في التّعليم العربي للصّغار.3- تجنيدالطّبة المتخرّجين في تعليم أبناء الشّعب. 4-العمل على تعميم التّعليم العربي للشّبّان على نهج ابن باديس. 5- مطالبة الحكومة برفع يدها على المساجد والمعاهد، التي استولت عليها، وتسليم الأوقاف الإسلامية التي احتجزتها، ووزّعتها على معمّريها. 6- مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي، وعدم تدخّلها في تعليم الموّظفين الدّينيين .

وفي السّنة الأولى للجمعية قرّرت إدارة الجمعية تعيين العلماء الكبار على عواصم المقاطعات الثّلاث، للإشراف على الحركة الإصلاحية والعلمية في المقاطعة كلّها، فعيّن الإبراهيمي بمقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان، فأنشأ فيها مدرسة دار الحديث، وتولّى تعليم الطّلبة الكبار بنفسه. وكان يتنقّل في العطلة الصّيفية في الإقليم الوهراني للوعظ والإرشاد، وتفطّنت فرنسا لخطورة نشاطه عليها، فنفته إلى الصّحراء .

-الإبراهيمي في منفاه.

في سنة 1940 قرّرت الحكومة الفرنسية نفي الإبراهيمي إلى مدينة آفلو، وبعدها بأسبوع توفي الشّيخ عبد الحميد بن باديس، فانتخبه المجلس الإداري للجمعية رئيساً لها، فسييرها انطلاقاً من منفاه، عن طريق تبادل الرّسائل بينه وبين أعضائها، وبعد الإفراج عنه سنة 1943، استأنف نشاطه بعزم وهمّة ، واتّخذ الجزائر العاصمة مركزاً لرئاستها، كما أسند إليه إخوانه في الجمعية رئاسة تحرير جريدة البصائر فقبلها مكرهاً. فكان يقوم للجمعية بكلّ واجباتها، ويقوم للجريدة بكلّ شيء .

-الرحلة الثّانية إلى المشرق.

نظراً لتزايد طلبة العلم على الجمعية، وارتفاع المستوى التّعليمي، الذي يتطلّب المزيد من الأموال، اظطرّ البشير الإبراهيمي إلى الرّحيل إلى الشّرق، بتكليف من جمعية العلماء، سنة 1952، ومن بواعث هذه الرّحلة أمران:

الأوّل:السّعي لدى الحكومات العربية لتقبل بعثات من أبناء الجزائر .

الثّاني: مخاطبة حكومات العرب والمسلمين في إعانة الجمعية ماليّاً، حتّى تستطيع أن تواصل أعمالها. كما قام الإبراهيمي في بداية اندلاع الثّورة بمقابلة الملك سعود بن عبد العزيز وأقنعه بدعم

الثّورة الجزائرية، وكان له ما أراد، كما بذل جهداً في الوصول إلى أجهزة الإعلام لعرض القضية الجزائرية، فأصبح يسجّل أحاديثه النّضالية عن كفاح الجزائر، انطلاقاً من إذاعة صوت العرب بالقاهرة، وكان الإبراهيمي يتابع أحداث الثّورة المسلّحة وتطوّراتها، وأمر جميع أتباعه بتأييدها، والالتحاق بكتائب الجهاد، ومن أهمّ الأوطان التي زارها في هذه المرحلة: تونس-ليبيا- مصر-العراق- الكويت-سوريا- فلسطين- الحجاز- وتركيا وأفغانستان وباكستان والهند، وتعرّف على شخصية المودودي، الذي سرّبه كثيراً .

-آثاره:

يقول الإبراهيمي عن هذا الأمر: لم يتّسع وقتي للتّاليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنّني أتسلّى بأنّني ألّفت للشّعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته فأصبح مسلماً عربيّاً، وصحّحت له موازين إدراكه فأصبح إنساناً أبيّاً، وحسبي هذا مقرّباً من رضى الرّبّ ورضى الشّعب. ومع ذلك فقد ساهمت بالكتابة في موضوعات مفيدة ، ولكن لم يساعدني الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلّها مسودّات في مكتبتي بالجزائر ونذكر منها:

-* عيون البصائر: وهي مجموعة المقالات التي كتبها بقلمه في جريدة البصائر في سلسلتها الثّانية. *-كتاب بقايا فصيح العربية في اللّهجة العامية بالجزائر.*كتاب النّقايات والنّفايات في لغة العرب * كتاب أسرار الضّمائر في العربية.*كتاب التّسمية بالمصدر. *كتاب الصّفات التي جاءت على وزن فعل. *كتاب نظام العربية في موازين كلماتها. *كتاب الاطّراد والشّذوذ في العربية. رسالة في الفرق بين لفظ المطّرد والكثير عند بن مالك. *كتاب ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السّائرة. * رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاث أحرف لا اثنان.* رواية كاهنة الأوراس . *رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية. * كتاب حكمة مشروعية الزّكاة في الإسلام. *كتاب شعب الإيمان .

-من أقوال الادباء فيه :

كان البشير الإبراهيمي قويّ الشّخصية، ثاقب الفكرة، بعيد النّظر، واسع الثّقافة، متعمّق في معظم علوم اللّغة، ممّا جعل صيته ينتشر، ومكانته تسمو في نفوس الكثيرين داخل الوطن وخارجه. فكتبوا عنه، وأثنوا عليه. ومن الشّخصيّات التي أشادت به:

• إبراهيم مدكور(رئيس مجمع اللّغة العربية- القاهرة-) قال فيه:«البشير مصلح ومجدّد، مجاهد ومناضل، عالم ومربّ .«

• جميل صليبا: (أحد تلاميذ الإبراهيمي بدمشق) وهذا قوله فيه: «من عجيب أمر الشّيخ أنّ النّاس كانوا لا يهتمّون به عند لقائه لأوّل مرّة، حتّى إذا تكلّم أو احتجّ أو خطب ألهب النّفوس حماسة وجعل القلوب تشرئبّ إليه للاستمتاع بفصاحة لسانه، وسحر بيانه. يدخل المجلس كزهرة ذابلة فإذا هو بعد الأخذ بناصية الكلام أشبه شيء بكوكب درّي .«

• بوعلام بسّايح: (وزير سابق للبريد والمواصلات) قال:«لقد ملك ناصية اللّغة العربية، فكان خبيراً بأسرارها، ضالعاً في أساليبها، بارعاً في فنونها وآدابها، له عليها سلطة وسلطان، تطاوعه كلّما عالج موضوعاً من المواضيع، وتنقاد له كلّما اتّخذها أداة للمحاججة والجدال. ليست طريقته في الكتابة أسلوباً يحتذى فحسب، إنّما هي مدرسة ونموذج، وشرعة في جزالة اللّفظ، ومتانة العبارة، وقوّة الحجّة «.

• عبدالرّحمن شيبان(وزير سابق للشّؤون الدّينية) قال فيه:«لقد كان رحمه الله إماماً في العربية وبلاغتها تفقّه في أسرارها، وتغذّى بآدابها، واستنار بقرآنها .« ...

• زهور ونيسي(وزيرة الحماية الاجتماعية السّابقة) قالت فيه:«كان الإبراهيمي الكلمة الصّادقة التي لا تبلى لها جدّة، والكلمة المختلصة النّابضة أبداً، والكلمة المنهج الرّشيد..شامخة وارفة الظلّ، رانية القطوف «.

• الدّكتور محي الدّين صابر(المدير العام للمنظمة العربية للتّربية والثّقافة والعلوم) قال:«إنّ للإمام الشّيخ فوق نضاله وعطائه الوطني والقومي، والفكري مكانة خاصّة في البيان العربي، فقد كان أمّة وحده في نصاعة الأسلوب، وشرف البيان «.

• شكري فيصل:(الجامعة الإسلامية -المدينة المنوّرة-)قال فيه: «لم يكن الإبراهيمي خطيباً فحسب، بالمعنى الذي يغلب على الخطب والخطباء، ولكنّه كان مع ذلك وإلى جانب ذلك مفكّراً من الطّراز الأوّل.. وكان مفكّراً يحترم نفسه وعقله وفكرته ودعوته .«

• ماري نجم (باحثة- لبنان) قالت فيه: «هو من أبرز حرّاس لغة العرب وأقواهم حرصاً على حفظها. سله ما تشاء وعن أيّ كاتب أو شاعر أردت ؟ إنّه بحر زاخر من المعلومات الأدبية والعلمية «.

-وفاته :

في التّاسع عشر ماي 1965 أسلم الإبراهيمي روحه الطّاهرة إلى خالقها، عن عمر يناهز ستّة وسبعين عاماً ، وكان لهذا اليوم الأثر البالغ في نفوس الشّعب الجزائري، ونعاه العالم العربي والإسلامي ونكّس أعلامه، معلناً الحداد، ودفن- رحمه الله- بمقبرة (سيدي محمد) بالجزائر العاصمة، وكان ممن حضر الجنازة الرّئيس الرّاحل هواري بومدين والشّاعر الكبير محمد العيد آل خليفة الذي رثاه بقصيدة حزينة، كما رثاه عدد كبير من شعراء الجزائر .

-عيون البصائر:

سمى الابراهيمي هذه المقالات (عيون البصائر) فالعين نبع الماء و الماء مصدر الحياة،فكأن عيون الصائر ماءا فكريا تحيا به العقول ،كما تحيا بالماء الحقول ، و قد كانت عيون البصائر ماءا حيويا ضد الافكار الميتة و الافكار القاتلة التي كان يبثها المستعمر آن ذاك و أتباعه الطرقيين.

لقد كانت هذه لمقالات عيونا أبصر بها الجزائريون طريقهم ،و رأو بها عدوهم و أبصرو بها حقائق دينهم و نياهم كم كانت فكرا و رؤيا نقدية ،فالعين هي النفيس من كل شيء ،و قد كانت هذه المقالات و ستبقى من أنفس ما دبجته الاقلام ،و أبدعته الاحلام ،من معاني مشرقة في عبارات جزلة.

إنها مدرسة ذات أسلوبية قل مثيلها في منهجية الخطاب العربي المرسل ،فهي تضرب بجدورها في أعماق التراث العربي القديم ،في الوقت الذي تبسط فيه أغصانها المتعددة على فروع المعرفة الحديثة .و هي نسج فريد من الأدب تجمع الحكمة و العقلانية و النقد و الإشارة و رشاقة الأسلوب و أناقة العبارة و الرمزية ،غير أنها تزيد على ذلك كله بخصوصيات أخرى أنها جزائرية العزيمة في التصدي للاستعمار و الدفاع عن الحرية و عروبية الانتماء في التأصيل الحضاري و اسلامية المنهج في التصحيح العقدي.

- المرجعية و الآلية النقدية في خطاب الابراهيمي:

إن الكتابة الأدبية عند الابراهيمي ترجمان لفكره و مرجعياته كأنها إعادة إنتاج أو كما عبر بيار ماشري بقوله :"الكتابة الأدبية تنضح فكرا كما تنتج الكبد المرارة كأنه إفراز رشح سيلان." ...

و لنتأمل قدرة الكلمة على القيام بدور علاجي ،الكلمة عند الابراهيمي بناء يثير السؤال ،هي عالم يقفز و يسبح و لا يستقر في مكان و لا يحب الركود و الماء الآسن.كلمات الابراهيمي توجه العقل القلب ...من حيث عي منبت توجهات أو تقاطع تيارات.

-الرمزية و توظيف المصطلح القرآني:لا يكاد يحلو مقال من نصوص الابراهيمي من الرمزية القرآنية التي غدت سمة من سمات الخطاب الابراهيمي و التي أضفت عليه سموا ، تجلى على الخصوص في حسن تصريفه للافعال و المصادر في اقتباس عجيب من الايات و لجوء حكيم إلى المرجعية القرآنية من امثلة ذلك قوله:"ألا إن في الاستعمار لفحة من جهنم ،و إن في المستضعفين سمات ن أهلها أظهرها أنهم لا يموتون و لا يحيون "

و في موضع آخر نقرأ له :"يا هؤلاء إن الاستعمار شيطان ،و إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا "

و عند توعية الأحزاب الجزائرية بواجب الوحدة ،و مغبة الافتراق يمهد لذلك بالقرآن أيضا فيعرض بالفرقة قائلا:"ما ذكر القرآن الأحزاب بلفظ الجمع إلا في مقام الخلاف الهزيمة ((فاختلف الأحزاب من بينهم))

الآية 37 سورة مريم.((جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب))الآية11 صورة ص،و إن حزب الله في الأمة الجزائرية هو جمعية العلماء .

أما عن فلسطين السليبة فقد جعل منها الإبراهيمي قضية كل جزائري و قضية كل عربي و كل مسلم و خصها بسلسلة من المقالات حاول فيها استنهاض الأمة العربية ،و العزة الإسلامية فاستعان على ذلك بنفس الإعجاز القرآني ،و هو القائل:" و أن فلسكين و ديعة محمد عندنا، و أمانة عمر في ذمتنا ،و عهد الإسلام في أعناقنا فلئن أخذها اليهود منا و نحن عصبة إنا إذا لخاسرون "

ما أبرع الإبراهيمي و ما أبرع أسلوبه الرمزي القرآني هذا في التأثير على قارئه و أنى لهذا القارئ أن يدرك كنه هذه الرموز و أبعادها إن لم يكن مدركا للقرآن معتادا على إعجازه،فهذه الأداة المعرفية ضرورية لمن رام قراءة عيون البصائر.إن هذه المواقف و غيرها أحدثت صدى لطروحلتهم التنظيرية و آرائهم الفكرية كان الابراهيمي من:"الداعين ‘لى تطوير الحياة و تجاوز السائد المألوف إلى ماهو مغاير و مبتدع هذا الموقف الجديد حسب رأي أحد النقاد يصبح ظاهرة حيوية لا يمكن التهوين من شأنها أو إغفالها"

-الإبداع البياني:

إن في البنيوية اللغوية للخطاب الإبراهيمي ،لسرا عميقا و هو الذي يجليه السحر البياني الذي يأخذ من النحو العربي شروحه و من المجاز البلاغي وضوحه و من الفقه الديني طروحه ،ليبعث الكل في سمو إشارة و دقة عبارة.و هل يستطيع القارئ العادي أن يدرك هندسة هذه العبارات ، و فلسفة تلك الاشارات إن لم يكن معدا إعدادا ثقافيا دقيقا عميقا.؟ ذلك هو العائق المعرفي الذي يصطدم به فاقد التكوين الثقافي في قراءته للنص الابراهيمي عيون البصائر فمن أول استهلال تطالعنا به (عيون البصائر)إلى آخر التسابيح الشعرية ممثلة في سجع الكهان و مرورا (بالقضية ذات الذنب الطويل)و نص (عادت لعترها لميس)و (الشك في الايجاب نصف السلب)و (إبليس ينهى عن المنكر)و نص (كلمات مظلومة) كلها مقالات و نصوص تحتاج منا القراء المتمعنة بعقل مفتوح و قريحة وقادة للتغلب على عقبة الفهم.

و لئن تساءلنا بكل موضوعية لمن كان يكتب الابراهيمي هذه المقالات ؟إذا علمنا المستوى الثقافي السائد آنذاك ،في الجزائر على الخصوص و حظ الجزائر من العربية في ذلك الحين إن ردود

فعل هذه النصوص فاقت كل تصور داخل الجزائر و خارجها تدل عل تفوق النوع الثقافي على الكم كل ذلك في عبارات قلت فدلت.

في نفس السياق يمضي الكاتب في زرع حكمه فيلقى على قارئه هذه الحكمة البالغة :"كذلك حملة الألسن و الأقلام –من العلماء المقثفين في الأمة –فلتأتهم المصائب من كل صوب ،و لتنزل عليهم الضرورات من كل سماء ،و ليخرجو من كل شيئ إلا شيئين القلم و اللسان .إن بيع القلم و اللسان أقبح من بيع الجندي لسلاحه "

و في التذكير بعراقة الإنسان الجزائري في أعماق الحضارة العربية يسوق كتاب عيون البصائر هذا التصوير البلاغي الفني لجهود جمعية العلماء في تثبيت أصالة الجزائر فيقول:"و جاءت جمعية العلماء على عبوس الدهر ،و تنكر من الأقوياء فنفخت من روح العروبة في تلك الأنساب فهي صريحة ،و سكبت من سر البيان العربي في تلك الألسنة فإذا هي فصيحة ،و أجالت الأقلام في كشف تلك الكنوز فإذا هي ناصعة بيضاء لم يزدها تقادم الزمان إلا جدة ...جمعية العلماء هي التي حققت للجزائري نسبه العربي الصريح بريئا من شوائب الإقراف و الهجنة "

إن في كل لفظة من هذه العبارات يكمن إيحاء يحيل إلى قضية معينة ...فإضافة إلى سحر البيان ،و براعة التصوير ،و هندسة اللفظة ،تضاف خصوبة المرجعية التاريخية و العقدية و الفكرية.

فنجده في موضع ما يحاجج الاستعمار برؤية فكرية و روح فنية عجيبة قائلا:" يا حضرة الاستعمار إننا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك ،و إذا حاكمتنا إلى القوة غلبتنا ،و لكننا قوم ندين بأن العاقبة للحق ،لا القوة "

تلك إذا مقدمة بيانية سليمة لنتيجة دينية قويمة ،هكذا نرى إذا أن من خصوصيات الابداع البياني في الخطاب الإبراهيمي هذا الربط المحكم و البديع بين المبنى و المعنى ،و بين الموسيقى التصويرية و الدلالة الإبداعية التعبيرية كل ذلك في سجع مقل ، و إيجاز غير مخل "إن هذه الأمة أنجبت الجندي الذي يحرس الحق لا الجندي الذي يخرس الحق" و في موضع أخر "أتطلبون الفص من اللص ،و تقيسون من مورد النص" و هو القائل أيضا :"المرأة الجزائرية تنتحب ،و الحكومة الجزائرية تريد لها أن تنتخب "

أمثلة كثيرة وشيت بها مقالات عيون البصائر ،تشد إليها القارئ فلا تدع عقله يسهو أو عينه تغفو لأن متابعة التسلسل البياني تحول بين ذلك.

لقد اهتدى الإبراهيمي بفطرته الأصيلة و ذوقه العربي السليم إلى أن التراكيب العربية النحوية ترفض إسناد فرنسا للإسلام في تركيبتها المقترحة ، فلا تركيب الإسناد و لا التركيب الإضافي ،و لا التركيب الوصفي و لا التركيب المزجي في موقف عجيب بقادر على تأدية دوره الوظيفي يقول الإبراهيمي:"في العربية تركيب الإسناد ،و الإسلام لا يرضى أن يسند إلى فرنسا الاستعمارية و لا أن تسند إليه،و في العربية التركيب الإضافي و الإسلام لا يسمح أن يضاف إلى فرنسا و لا أن تضاف إليه ،و في العربية التركيب المزجي و الإسلام و فرنسا كالزيت و الماء لا يمتزجان إلا في لحظة التحريك العنيف ثم يعود كل منهما إلى سنته من المبانة و المنافرة " تلك هي عبقرية النص في الخطاب الإبراهيمي من خلال الإبداع البياني.

-الرؤية الفكرية و العقلانية:

قد نظلم الخطاب الإبراهيمي إذا فصلناه عن الجانب الفلسفي العقلي و العلمي لأنه يأبي إلا أن يأخذ حظه من الجوانب الفكرية المعاصرة في براعة لا تقل عما ألفناه عنده في مجال الذوق الأدبي و البيان البلاغي و التبحر الفقهي و الذكاء السياسي. و

لئن استعان الإبراهيمي بكل المناهج كالتاريخية التحليلية و الفلسفية النقدية و البرهان الرياضي ، فهي تترجم مدى أهمية الموسوعية المعرفية التي تطبع ثقافة الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي و خصوصا مدى تفتحه على علماء و ثقافة عصره و هو الذي ورث تكوينا على يد علماء تقليديين.

ما أبرعه من عقل يضفي على كل قضية طابع الاستنباط العقلي ، ليلفت الانتباه فيقابل بين فكرة صحيحة و أخرى فاسدة ، و بين خاطرة أصلية و أخرى وافدة ليبني النتيجة على المقدمات و تلك من مهمات الفيلسوف .إن هذا المنهج المقارن الذي نلتقي به في أدب الإبراهيمي يعد نسجا فريدا في الخطاب العربي المعاصر حيث يستخدم فن (التوليد اللغوي)و (التصوير المعنوي)في رسمه لحدود القضايا و يجعل من القارئ الموجه إليه الخطاب مأسور العقل مشدود البصيرة. فنجده عندما يتوجه بالخطاب إل طلاب العلم من أبناء الجزائر في تونس و المغرب ليرسم لهم صورة عقلية دامغة الحجة يربطهم في النهاية بالوطنية في أنبل صورها فيقول:"إن الوطنية لعقلية كرام ، لا يساق في مهرها بهرج الكلام ، و كريمة بيت لا تنال بلو و لا بليت ، و إن العلم كبير أناس لا يصاحب إلا بضبط الأنفاس. "

إن الفكر العقلاني لطافح بمنهجه و أدلته و براهينه في خطاب عيون البصائر بما أوتي الشيخ البشير الإبراهيمي من حكمة و فصل خطاب:"العلم العلم .....أيها الشباب ، لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب ، ينفخ في ميزاب، و لا داعية انتخاب في المجامع صخاب ، و لا يلفتنكم عنه معلل بسراب ، و لا حاو بجراب، و لا عاو في خراب يأتمُّ بغراب، .....فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلاب، و ساحر كذاب."

-السياق التاريخي:

لقد جاءت نصانية عيون البصائر مدونة لسيرة الأعداء و الحلفاء على السواء ضمن سياق تاريخي نجد فيه أبرز حوادث العصر بتموجاتها و صراعاتها و تحدياتها و ردود أفعالها و ما يمثل السياق التاريخاني للجزائر و العالم الإسلامي في تلك الفترة .فعن الاستعمار يقول:بأن أصل هذه الكلمة في لغتنا العربية طيب ففي القرآن الكريم((هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها)) "و لكن اخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث ظلم لها و الذي صير هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس ثقيلة على الأسماع هو معناها الخارجي –كما يقول المنطق- و هو معنى مرادف للاثم و البغي و الخراب، و الظلم و التعدي و الفساد و النهب و السرقة و الشر ، و القسوة و الانتهاك ، و القتل و الحيوانية ....إلى عشرات من من مئات من هذه الرذائل تفسرها آثاره ، و تتجلى عنها وقائعه."

و لئن انتقلنا إلى سجع الكهان فإننا نجد لونا آخر من الخطاب السياسي الأدبي خطاب يجمع بين رشاقة اللفظ و خفة المعنى ألغاز (سجع الكهان) صور تمثيلية قل لها النظير رموز للواقع التاريخي في العالم العربي الإسلامي آنذاك إرتضاه الكاتب بأسلوب رمزي إشاري و صورة فيها:" الزمزمة المفصحة و التعمية المبصرة ،فيها التقريع و التبكيت ، فيها السخرية و التنكيت....فيها العسل للأبرار و ما أقلهم ، و فيها اللسع للفجار و ما أكثرهم...فلعلها تهز من أبناء العروبة جامدا أو تؤز منهم خامدا ، فتجني شيئا من ثمرة النية ، و تغير أواخر هذه الأسماء المبنية."

يعمد دوما إلى لوقائع التاريخية من خلال آثارها و يسوق لها صورا إبداعية من ذلك نسوق المثال التالي:" أيها الأعارب.....هل فيكم بقايا من حرب أو محارب ، دبت بينكم العقارب ، و أنتم

أقارب ،فتكدرت المشارب و تقوضت المضارب ،و غاب المسدد في الرأي و المقارب" ."أقسم بالذئب الأطلس ،و الثعبان الأملس ،إن المتجر بالأحرار لمفلس ،و إن العاقل بين الأشرار لمبلس ،و إن العربي لزنيم إذا بقي في المجلس ."

-خاتمة:

إن فكر الابراهيمي من حيث هو منبت توجهات و تقاطع تيارات ،مواقفه الفكرية تطرح تصورا جديدا للواقع التاريخي و التراثي ،رغم ما عانته الشخصية من إستلاب ثقافي كان وراءه الاستعمار و الهيمنه الامبريالية.لقد ثار الشيخ على واقعه و تصادم مع البنى الفوقية معلنا عدم رضاه ،و رأى أن الثورة على النمط القديم جزء من منهج فكري يتخذه المثقف الواعي لتحقيق تطوره الحضاري ثقافيا ،"إيمانا منه أن الأمة التي لا تؤمن بالتطور يحكم عليها بالموت و إن كان بطيئا"

لعل خير ما نختم به هذه الفسحة البيانية في رحاب (عيون البصائر) مبادئ الشيخ المضيئة للشباب و هو رائد الفكر الاسلامي الراقي طالبا منهم أن يتخذوها قواعد لحياتهم فقال :" أتمثله مصاولا لخصومه بالحجاج و الاقناع ،لا باللجاج و الاقذاع ،مرهبا لأعدائه بالاعمال لا بالأقوال..."رجل و مفكر جعل القلم شعار و سلاح فكان أمضى سلاح كيف لا و هو القائل عنه رحمه الله:" هذا القلم قد براه الله لينضح العسل المصفى للمقسطين،و ينطف الصاب و الحنظل للقاسطين،و يرسم الحمم مدرارا على المستعمرين" .

- هوامش و إحالات:

- مدام دوستال (دولفين) نقلا عن بيار ماشري بم يفكر الأدب ،المنظمة العربية للترجمة بيروت ط1 حزيران يونيو 2009 ص42.

* -خير الدين الزّركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستشرقين ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002، ج6، ص:54

* - ينظر محمد البشير الإبراهيمي-أنا- مجلّة الثقافة، ص:11-14

* - نفس المرجع، ص15.

* - عبد المالك مرتاض، الثّقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ط،1981، ص109

* - البشير الإبراهيمي، أنا، نفس المرجع، ص(16-17-18).

* - نفس المرجع، ص: من(19إلى27).

* - نفسه، ص:27.

* - محمد عباس، نفس المرجع، ص(55-56).

* - محمد البشير الإبراهيمي، -أنا-المرجع السابق، ص:(32-33).

* - البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء، المرجع السّابق ، ص:51.

* - مقتطفات من مذكّرات الدكتور جميل صليبا، نفس المرجع، ص:57.

* - الشيخ البشير الإبراهيمي الرّائد، المرجع السّابق، ص:60.

* - الإمام الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي واللغة العربية، نفس المرجع، ص:73.

* - بعض من رؤية العلامة الإبراهيمي في الإصلاح الاجتماعي، نفس المرجع، ص:92

* - محمد البشير الإبراهيمي والدعوة القومية، نفس المرجع، ص: 119.

* - قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، نفس المرجع ص191.

* - الإبراهيمي والمجمع العلمي العربي، نفس المرجع، ص335 .

* - محمد عباس، نفس المرجع، ص:62.

* - بم يفكر الأدب :بيار ماشري ص345.

19- عيون البصائر البشير الابراهيمي دار الغرب الاسلامي الطبعة الأولى 1997 ص 220

20- نفسه ص 2*

21-نفسه ص66

22- نفسه ص445

[*] - أوراق تلقي النص الإبداعي و نقده:عبد الرضا على ، دار الشروق عمان الأردن ، 2006، ص11.

23- نفسه ص43.[*]

24-عيون البصائر ص57.[*]

25- نفسه ص[*]63

26-ينظر يون البصائر ص ، 131، 358

27- عيون البصائر ص 350

28- عيون البصائر ص315.

29- نفسه ص316.

30- عيون البصائر ص 506.

31- عيون البصائر ص518.

32- نفسه 524-532.

[*] - ينظر أوراق في تلقي النص الابداعي و نقده ص13.